سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل السادس

عام
الأيام الدموية

obeikan.com

obeikan.com

١ - عودة الدم

حمل عام ٢٠٠٨ عصاه الغليظة ورحل بعد أن رسم صورة يظهر فيها الأمل على استحياء تبشر بعودة شبه طبيعية للحياة خاصة مع ما حملته نتائج انتخابات مجالس المحافظات ، الانتخابات المحلية التى جرت بداية العام ٢٠٠٩ من نتائج مبشرة بانتهاء عهد الأحزاب الدينية وخفوت نجم الخطاب الطائفى ، ورغم اتجاه الأوضاع الأمنية إلى الاستقرار النسبى وعودة الحياة إلى طبيعتها بشكل كبير بما يؤشر إلى انتهاء عصر ممالك الخوف وزمن فرق الموت التى سادت أيام المذبحة .. إلا أن هذا العام شهد هجمات دموية أعادت للاذهان ذكريات غلفها اللون الأسود وخضبتها الدماء وهو ما أدار دفة الاستقرار باتجاه عكسى وتراجع صناع النصر على زمن المذبحة عن الاحتفال بانتصاراتهم التى كانت قد بدأت بالظهور برفع الكتل الأسمنتية التى تحيط بشوارع العاصمة بغداد وتغلق أكثر من ٦٠ ٪ منها لتستحيل حياة سكانها جحيما وتتقطع السبل بهم مرات ومرات خاصة أولئك الذين كانوا يمتلكون محال تجارية ومعامل ومصالح ومقاهى تعذر الوصول إليها بسبب إغلاق كافة الطرق المؤدية منها وإليها .

بدت الأمور للمراقب وحتى المواطن العادى أن هناك من يريد إكمال الطريق الذى بدأ والإجهاز تماما على زمن المذبحة .. بينما يقف له بالمرصاد من يريد إعادة أيام المذبحة أو على أقل تقدير ابطاء الخطى نحو تحقيق الاستقرار ليبقى الاستقرار المتحقق هشا سائبا يذوب بفعل نيران مشتعلة تسببها الانفجارات والهجمات المسلحة .. بدا رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى الذى نسبت إليه الانتصارات على كل من حمل سلاحا موازيا للدولة خاصة جيش المهدى منتشيا بالنصر ويخطو خطوات واثقة دعمتها الانتصارات المبهرة التى حققها ائتلاف دولة القانون الذى يتزعمه فى الانتخابات المحلية والتى اعتبرها تخويلا من الشعب بإكمال السير قدما نحو إنهاء زمن الفوضى المنظمة وإيقاف أنهار الدماء التى سالت وطمس معالم زمن الخوف ليذهب دخان التفجيرات بعيداً بعد أن أحرق الأخضر واليابس .. إلا أن هذا التوجه اصطدام فيما يبدو ببقايا سلاطين الخوف والقهر وحكام زمن المذبحة الذين اعتبروا ذلك تمرداً عليهم قاهراً لسلطتهم التى أرادوها فوق سلطة الدولة .. تتعدد العناوين والأسماء لتلك الجهات والقوى الداخلية والخارجية التى حالت دون إحراز المزيد من التقدم على الصعيد الأمنى خاصة مع بدء سريان الاتفاقية الأمنية .. إلا أن الهدف كان واحداً هو وقف تحسن الأوضاع وإظهار الأنياب

السوداء بين الحين والآخر حتى يظل الشعب العراقى رهينة للخوف ويبقى المالكى وأركان حكومته متحفزا دائما ربما يجافيه النوم أياما تحت وطأة الضربات الموجعة التى شهدها عام ٢٠٠٩ وهو عام الأيام الدموية بامتياز .

وإذا كانت الهجمات خاصة التفجيرات الكبرى قد انخفضت وتيرتها وتراجعت أعمال العنف إلى معدلات تصل إلى ٨٠ ٪ إلا أن كل شهر من شهور العام ٢٠٠٩ كان يخبىء يوما دمويا حارقا يحد من انطلاق العراقيين وخاصة سكان بغداد نحو ممارسة حياتهم بشكل طبيعى لتعود المخاوف وتسيطر على مشاعرهم وتخفف الهواجس من شعورهم بالأمن المفقود وسوف أقدم سردا بسيطا لأشد التفجيرات التى شهدها العام ٢٠٠٩ باعتبارها سهلة الحصر أما أعمال العنف المنظمة فمن الصعوبة بمكان حصرها مثل الاغتيالات بالطلقات كاتمة الصوت والقتل بتفجيرت العبوات اللاصقة التى زاد استخدامها اعتبارا من عام ٢٠٠٩ وهى عبوات تشير أصابع الاتهام الرسمية والشعبية إلى إيران بتعميمها على مناطق العراق حيث لا يكلف الأمر سوى القليل من الدولارات لشرائها وهى عبارة عن كمية من المتفجرات مزودة بمغناطيس يتم لصقه بالسيارة لينفجر من خلال جهاز التحكم عن بعد أو مع تشغيل محرك السيارة وربما لا يتعدى تأثيره تدمير السيارة الملتصق بها وقتل صاحبها أو إصابته بجروح بالغة .

فى الرابع من كانون الثاني/يناير لقى ٣٨ زائرا شيعيا مصرعهم في هجوم انتحاري قرب ضريح الإمام الكاظم / الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية/ في منطقة الكاظمية شمال بغداد وهو الهجوم الذى أدى إلى إصابة أكثر من مائة آخرين رغم أن هذه المنطقة المقدسة لدى الشيعة تحظى بإجراءات أمنية شديدة الإحكام وهو ما تسبب فى هز ثقة الناس فى قدرة الأجهزة الأمنية وسريان شعور بالإحباط واللاجدوى طالما تمكن هذا الانتحارى من النفاذ إلى تلك النقطة الحصينة من بغداد .

وفى الثالث عشر من شباط/فبراير لقى ٤٠ شخصا معظمهم من النساء والأطفال مصرعهم في هجوم انتحاري نفذته امرأة استهدف موكبا للشيعة في المسيب التى تبعد حوالى ٨٥ كم جنوب بغداد وتتبع محافظة بابل وكان هذا الموكب متوجها إلى كربلاء المقدسة لدى الشيعة لزيارة مرقد الإمام الحسين وأخيه غير الشقيق العباس بن على بن أبى طالب وهى هجمات ينظر إليها على أنها محاولة لإعادة إنتاج الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة إلا أنها محاولات يائسة ثبت فشلها بعد اتضحت الصورة أمام الشعب العراقى وأدرك جيدا مثل هذه المؤامرات وما ترمى إليه .

أما الثامن من آذار/مارس فقد شهد هجوما نوعيا كرس المخاوف من اختراق الأجهزة الأمنية ووجود من يسهل عمل المهاجمين بسبب استهدف الهجوم منطقة أمنية مغلقة ومحصنة وهى مقر أكاديمية الشرطة وسط العاصمة بغداد وأسفر عن مقتل ٢٨ شخصا غالبيتهم من المتطوعين الجدد في سلك الشرطة وإصابة ٥٨ آخرين بجروح وذلك عن طريق انتحاري يرتدى حزاما ناسفا جعل الناس في الشارع يتساءلون كيف تمكن مثل هذا الانتحاري تجاوز كل هذا العدد من نقاط التفتيش والنفاذ للوقوف وسط المتطوعين المفترض أن يصبحوا مسئولين عن أمنهم وأمن المواطنين .. وتلا هذا الهجوم الانتحاري بيومين فقط هجوم مماثل استهدف سوقا شعبيا هذه المرة في منطقة أبو غريب التى تبعد ٢٠ كيلومترا غربى بغداد أسفر عن مقتل وإصابة حوالى ٨٠ شخصا .. فيما فجر انتحاري نفسه وسط مجلس عزاء في منطقة جلولاء بمحافظة ديالى شمال شرقى بغداد فى ٢٣ آذار/مارس مما أدى إلى سقوط ٢٥ قتيلا و٥٠ جريحا تلاه بثلاثة أيام انفجار سيارة مفخخة وسط بغداد سقط نتيجتها عشرون قتيلا و٣٨ جريحا.

وفى السادس من ابريل /نيسان قتل ٣٤ شخصا وجرح ١٣٠ أخرون في موجة تفجيرات استهدفت ست مناطق في بغداد وضواحيها .. فيما ضربت ثلاث هجمات انتحارية الزوار الإيرانيين في قضاء المقدادية التابع لمحافظة ديالى المشتعلة ، شمال شرق بغداد فى ٢٣ من نفس الشهر أسفرت عن مقتل ٨٤ شخصا على الأقل وإصابة العشرات تلاها بيوم واحد سقوط ٥٨ قتيلا بينهم ٢٠ من الزوار الإيرانيين في تفجير انتحاري شمال بغداد.

واستمرت الهجمات ضد الشيعة، فى محاولة لإشعال الفتنة النائمة مرة أخرى حيث ضربت سلسلة تفجيرات بالعبوات خمسة مساجد شيعية فى ٢١ من نفس الشهر أدت إلى مقتل ٢٩ شخصا وجرح ١٣٦ آخرين .. فيما سقط ٥١ قتيلا يوم ٢٩ جراء انفجار ثلاث سيارت مفخخة في مدينة الصدر معقل أنصار التيار الصدرى وجيش المهدى المجمد .. كما امتدت الهجمات لتطال مناطق أخرى ذات غالبية شيعية فى ٢٠ أيار/مايو حيث قتل ٤٠ شخصا وجرح ٨٣ بانفجار سيارة مفخخة في حى الشعلة، شمال غرب العاصمة بغداد.

وفى ٢٠ حزيران/يونيو قتل ٧٢ شخصا وأصيب أكثر من ٢٠٠ آخرين جراء انفجار شاحنة مفخخة في بلدة تازا التركمانية الشيعية التى تقع على بعد ٣٠ كم من كركوك، شمال العراق.. فيما ضرب تفجير بسيارة مفخخة أحد اسواق مدينة الصدر بعد ذلك بأربعة أيام أدت إلى سقوط ٦٢ قتيلا و١٥٠ جريحا .

وتصاعدت الهجمات مع بدء تطبيق القوات الأمريكية لبنود الاتفاقية الأمنية والانسحاب من مراكز المدن يوم ٣٠ حزيران/يونيو حيث سقط ٢٦ قتيلا و٧٠ جريحا في انفجار سيارة مفخخة في كركوك التى تبعد ٢٥٥ كم شمال العاصمة والتى تشهد نزاعا بين الأكراد من جهة والعرب والتركمان من جهة أخرى وتتنازع القوات الكردية بمختلف صنوفها « البيشمركة والأسايش» مناطق النفوذ مع القوات العراقية « الجيش والشرطة» .

وامتدت الهجمات لتضرب مناطق خارج العاصمة بغداد خاصة محافظة نينوى الشمالية لتوقع المزيد من الضحايا وترسم مشهدا أمنيا شديد الاضطراب رغم محاولات القائمين على الشأن الأمنى الحفاظ على فرض الاستقرار وان كان هشا .. فى ٩ تموز/يوليو سقط ٣٥ قتيلا و٦٠ جريحا في عمليتين انتحاريتين في حي سكني في تلعفر التى تقع على بعد ٦٠ كيلومتر تقريبا غربى الموصل عاصمة محافظة نينوى شمال العراق والتى ظلت عصية على الاستقرار طوال الوقت بسبب انتشار المجموعات المسلحة خاصة التابعة لتنظيم القاعدة وما تشهده من صراعات خفية وعلنية بين العرب والأكراد والتركمان .. كما سقط ٣٧ قتيلا و٢٧٦ جريحا في انفجار سيارة مفخخة قرب مسجد تركماني شيعي يوم السابع من آب/أغسطس تلاها بيومين فقط سقوط ٢٣ قتيلا و١٣٨ جريحا في تفجيرين بشاحنتين مفخختين في قرية خزنة التي تبعد ٢٠ كم شرق الموصل.

ولم يسلم المسيحيون الذين نالهم نصيب وافر من عذابات زمن المذبحة من التفجيرات النوعية التى استهدفت إعادة الأمور بالعراق إلى المربع الأول حيث تعرضت ست كنائس بالعاصمة بغداد خلال يوم التاسع من أغسطس ، إلى سلسلة تنجيرات استهدف الانفجار الأول، كنيسة «القديس يوسف»، غربي بغداد، في حوالي العاشرة من مساء السبت بالتوقيت المحلي ولم يكن أحد موجوداً بالكنيسة وقت التفجير الذي استخدمت فيه عبوتان ناسفتان.. فيما وقعت ثلاثة انفجارات أمام ثلاث كنائس في غضون ١٥ دقيقة، بين ٤:٣٠ و٤:٤٥ بعد ظهر الأحد ، وتوجد كنيستان منها بمنطقة «الكرادة» وسط العاصمة العراقية، بينما تقع الثالثة بمنطقة «الغدير» شرقي بغداد..كما انفجرت سيارة مفخخة أمام إحدى الكنائس في شارع «فلسطين» شرقي العاصمة العراقية في حوالي السابعة الأحد، أدى إلى سقوط أربعة قتلى على الأقل، وإصابة ٢١ آخرين .. فيما سقط ثلاثة جرحى في انفجار استهدف كنيسة سادسة، بمنطقة «الدورة» جنوبي بغداد، وأشار شهود عيان إلى أن بعض هذه التفجيرات وقعت قبل قليل من موعد صلاة مساء الأحد.

٢ - الزلزال

إلى هذا الحد ظلت الأمور تسير بشكل شبه طبيعى حيث اعتاد العراقيون على مثل هذه الأمور من تفجيرات وهجمات بعد أن كانت طقسا يوميا فى زمن المذبحة بل أنهم باتوا يحمدون الله على قلة عددها وانخفاض معدلات ضحاياها بعد أن سجلت الأجهزة الأمنية فى يوم واحد ٦٠ انفجاراً فى بغداد فقط عام ٢٠٠٦ .. استمر رئيس الوزراء نورى المالكى فى تنفيذ خططه الرامية إلى إعادة فتح ٤٠ ٪ من شوارع العاصمة بغداد وإلغاء ظاهرة الحواجز الأسمنتية التى ترقد على صدور البغداديين وتثير فى نفوسهم الكثير من القهر حتى أصبح من يسكن بغداد كمن يعيش داخل معتقل مفتوح تحيطه الأسوار الأسمنتية العالية التى عزلت مناطق بأكملها عن الأخرى فى عاصمة الرشيد .. وأعيد فتح المدخل المؤدي إلى وزارة الخارجية بمنطقة العلاوى وسط بغداد والمنطقة الخضراء فى شهر مايو من عام ٢٠٠٩ بعد إغلاق دام حوالى أربع سنوات في إطار خطة اعادة فتح الشوارع وإزالة الحواجز الأسمنتية التي امر بها المالكي.

إلا أن ما حدث يوم الأربعاء التاسع عشر من أغسطس كان بمثابة الزلزال المدمر الذى يجب على ضوئه إعادة تقييم الأمور ورسم الخارطة من جديد حيث سادت حالة من الإرباك والخوف العاصمة العراقية بغداد بعد سلسلة انفجارات عنيفة هزت إحياءها في أوقات متقاربة وخلفت أكثر من ١٢٠٠ قتيل وجريح في أعنف موجة للعنف تجتاح العاصمة بعد هدوء نسبى استمر أكثر من عام .

انفجرت السيارة الأولى عند الساعة العاشرة صباحا قرب وزارة المالية وسط بغداد من الجهة الشرقية / الرصافة/ مما أسفر عن انهيار جزء من جسر طريق محمد القاسم السريع المحاذي للوزارة التى أصابها دمار كبير وتصاعدت سحب دخان كثيفة في سمائها وسط دوي أبواق سيارات الإسعاف وفرق الإطفاء فضلا عن أصوات سيارات الجيش والشرطة العراقية مع تحليق كثيف للطيران الأمريكى .. فيما سقط عدد من السيارات من فوق الجسر وكان الانفجار أشبه بزلزال واهتزت الوزارة وتحطم كل شي بها .. سقط الموظفون ملقون على الأرض وعم مشهد الدماء والدمار في جميع أنحاء المبنى الذى غطاه الغبار والدخان.. ضاقت صالات المستشفى القريب بالجرحى وتم تحويل عدد منهم إلى مستشفى تخصصي آخر لعدم إمكانية استيعابهم .

أعقب هذه الانفجار بفارق دقائق انفجار هائل آخر قرب مبنى وزارة الخارجية في محيط المنطقة الخضراء وسط العاصمة من جهة الغرب / الكرخ/ أحدث حفرة

قطرها حوالى ستة أمتار بعمق مترين وانهارت واجهة وزارة الخارجية بالكامل ولحقت أضرار كبيرة بمجمع الصالحية السكني المقابل .

تكرر المشهد الذى غاب بعض الوقت عن الساحة البغدادية .. جثث تحترق ..كميات كبيرة من الأشلاء وبقع الدماء .. عشرات السيارات المدنية المحترقة امتدت على بعد أكثر من ٣٠٠ متر من موقع الانفجار.

بعد أربعة أيام من الانفجار تلقيت دعوة من وزارة الخارجية مع عدد من الصحفيين والإعلاميين لتفقد آثار الدمار عن قرب والاستماع إلى رسائل مهمة أراد الوزير هوشيار زيباري أن ينقلها عبر وسائل الإعلام أهمها تأكيدات وجود تواطؤ من قبل أجهزة أمنية وحكومية عراقية في تسهيل حدوث التفجير الذي طال وزارته، وأدت إلى إعادة إغلاق الطريق المؤدى إليها من جانبيه وإعادة نصب الجدران الأسمنتية حولها وتكثيف الحراسة وإجراءات التفتيش .. وأذكر أن عددا من الزملاء الذين رافقونى خلال تلك الزيارة اضطروا إلى الإفطار بسبب المسافة التى قطعناها سيرا على الأقدام تحت قيظ شمس أغسطس الحارقة حتى نتمكن من الوصول إلى مبنى الوزارة الذى كان محتفظا بآثار الهجوم البربرى شاخصة على أرضيته التى حفرها الانتحارى بشاحنته المفخخة بطنين من المتفجرات وحوائطه المنهارة ووجوه منتسبيه التى تنطق بالحزن بينما اتشح أصحابها برايات الحداد حزنا على الشهداء والمفقودين والجرحى .

تساءل زيبارى فى لهجة تنطق بالاتهام لجهات لم يرد أن يفصح عنها ً «كيف يستدل شخص جاء من شمال أفريقيا إلى سوريا، ومن ثم يدخل إلى العراق ليصل إلى وزارة الخارجية ويفجّر نفسه.. لا استبعد وجود تواطؤ من قبل أجهزة أمنية والعناصر الإرهابية لتمرير السيارات المفخخة إلى هذه المناطق الحساسة».

واستدرك قائلا أن «رئيس الوزراء نوري المالكي أمر باعتقال قيادات أمنية برتب عميد ومقدم ورائد للمساءلة عن كيفية السماح لمرور هذه الشاحنة في هذه المنطقة الحساسة.. منتقدا ضعف الدور الأمني .. وأضاف «لا بد أن يكون هناك تحقيق مسؤول وتسمية الأمور بأسمائها والكف عن التصريحات المتفائلة أكثر من اللازم والأمن الزائف ولا بد أن نقول الحقيقة .. هناك تدهور امني واقعي ، والقادم ربما يكون أسوأ ».

طالب زيبارى بلهجة حاسمة باتخاذ إجراءات حازمة، قائلاً «علينا معالجة الخمول والكسل وعدم الانضباط لدى الأجهزة الأمنية وهذا لا بد أن يعالج بجهد امني وليس بالتصريحات .. أن الذي حصل يعتبر كارثة وطنية من حيث حجم الدمار وعدد الضحايا »، وانتقد «تعدد المسؤوليات الأمنية وكثرة التضارب فى تصريحات المسؤولين الأمنيين بشأن الخروقات الأمنية والتي تفقد مهمة تحديد

الجهة المسؤولة».

وقال «التفجيرات مدروسة ومبرمجة ومخطط لها منذ أشهر، وتم تنفيذها بمساعدة آخرين أمنياً ولوجستياً، وكان هناك تواطؤ من قبل أجهزة أمنية وحكومية في هذا الموضوع، إذ كيف يستدل شخص جاء من شمال أفريقيا إلى سوريا ومن ثم يدخل إلى العراق ليستدل ويصل إلى وزارة الخارجية ليفجر نفسه من دون وجود عناصر من الأجهزة الأمنية يدلونه على ذلك .. التقديرات التي نمتلكها أن الشاحنة التي انفجرت قرب الوزارة كانت تحتوي على طنين ونصف الطن من المتفجرات شديدة الانفجار، وان العملية تشبه إلى حد كبير العمليات التي ينفذها تنظيم القاعدة «.. مشيرا إلى أن «الانفجار تزامن مع ذكرى التفجير الإرهابي الذي تعرض له مقر بعثة الأمم المتحدة عام ٢٠٠٣، وهذه هي الأجندة الإرهابية المعروفة».

قال زيبارى «هناك تدخل كبير لها في العراق لأنها تسعى إلى تغيير نتائج الانتخابات المقبلة، كما أن بعض الدول أعلنت استعدادها بشكل علني لملء الفراغ الأمني بعد الانسحاب الأمريكي، في إشارة إلى إيران، وهذا الأمر فيه تدخل كبير بالوضع العراقي، بل هناك جهات أعلنت موقفها الرافض للوضع الجديد في العراق».

٣ - إبنى ماكو

بعد انتهاء المؤتمر الصحفى اصطحبنا وزير الخارجية فى جولة حول محيط المبنى المدمر الذى كانت بقايا جدرانه تحمل آثار الهجوم المروع فيما تملأ أرضيته بقايا القطع المتطايرة من الشبابيك والأبواب الألومنيوم وقطع الزجاج المهشم التى تغطى بعض الأوراق المحترقة وتحمل بقايا دماء الشهداء والجرحى .. وقفنا على حدود الحفرة التى سببها الانفجار والتى ملأتها المياه الجوفية رغم حرارة الجو فيما كان المسئولون عن إعادة إعمار المبنى يعملون على قدم وساق لإصلاح ما أفسده الانتحارى .

مرت سيدة طاعنة فى السن بجوار الوزير ومرافقيه وهى تستند إلى عصا خشبية وتبكى بمرارة كبيرة ولا يفارق لسانها توسلات لمن يمكن أن يسمعها « ابنى ماكو» / وتعنى باللهجة العراقية أن ابنى لم يعد موجودا / .. أشارت بيدها المرتعشة إلى الوقفين قائلة «، وينه» يعنى أين هو .. قال أحد حراس الوزير أنها والدة أحد المراجعين الذين كانوا متواجدين بالوزارة لتوثيق بعض الأوراق من القسم القنصلى ولم يعثر له على أثر مثل كثيرين غيره سواء من العاملين بالوزارة أو المواطنين

الذين قادهم قدرهم إلى هذا المكان فى هذا الوقت من هذا اليوم الدامى الذى كان بمثابة زلزال هز بغداد بمبانيها وسكانها .. أعاد الخوف إلى النفوس لتسيطر الهواجس مرة أخرى على من استراح قليلا من لون الدم ورائحة البارود التى أزكمت أنوف البغداديين فى ذلك اليوم لتعزز مخاوفهم من القادم الأسوأ .

فى طريق العودة إلى مكتبى وسط بغداد داهمنى مشهد شوارع العاصمة التى بدت خالية لأول مرة منذ أكثر من عام عندما عاد البغداديون يمارسون طقوسهم الحياتية العادية بعد الهدوء النسبى الذى فرضه توارى جيش المهدى والمجموعات المسلحة وفرق الموت عن الساحة وإن كان عملها يجرى بشكل أقل ضجيجا فى مناطق بعيدة عن مركز العاصمة بغداد .. عندئذ فقط تأكدت أن القادم ربما يكون أسوأ مما توقع وزير الخارجية العراقى ولكن ليس بمنظوره السياسى والأمنى ولكن بمنظور رجل الشارع الذى يعيش وسط الناس بعيدا عن الحصون المنيعة .. داهمتنى مشاعر حزن دفين بسبب تراجع آمال الناس الذين التقيتهم فى أن يتطور الوضع إلى الأفضل وأن تنتهى دوامة العنف إلى غير رجعة .. إلا أن ما شهدته العاصمة بغداد بعد هذا الأحد الدامى من أيام أشد دموية أطاح بتلك الآمال وجعل الناس يتوقعون الأسوأ مع اقتراب موعد الانتخابات النيابية التى رافقها الكثير من الجدل كرس تعميق الفجوة بين الشركاء السياسيين لينعكس ذلك على الوضع الأمنى الذى ازداد تعقيدا فيما بعد ليضع العراق على حافة مذبحة جديدة ولكن بتفاصيل مختلفة .

٤ - الخروج من الموت

عشر دقائق فقط كانت حجم المسافة بينى وبين الموت المفاجىء فى مذبحة جديدة تتشح بالسواد والألم والمرارة أطلق عليها الإعلام يوم الاثنين الدامى لتتشح أيام بغداد بالسواد ،كما سودوا وجه الأحد الدامى والثلاثاء الدامى والأربعاء الدامى ولم يتبقى من أيام بغداد سوى ثلاثة لتصبح كافة أيام الأسبوع مغلفة بلون الدم وتفوح منها رائحة البارود

فى بغداد عاصمة الرشيد التى تساوت البربرية فيها مع مناطق الصحراء المفتوحة والمدن المظلمة وتناثرت الدماء فى دوامة من الموت العبثى الذى لا يدرك الضحية أو قاتله كيف بدأت وإلى أين تمضى أو متى تنتهى والجميع يتساءل لماذا؟؟.

وسرعان ما يرتد السؤال فالمقتول ضحية للقاتل بلا سبب معقول والقاتل ضحية

لقاتل أكبر ربما يعرف وحده سبب القتل وإلى أين ستمتد انهار الدماء التى باتت بديلا عن أنهار الخير التى طالما روت ارض السواد وبساتينها .

تفاصيل بسيطة تغلفها الدهشة ويكسوها الألم للحظات فارقة بين الموت والحياة فى مدينة تفوق فيها فرص الموت فرص الحياة بأضعاف المرات ويسير فيها الجميع فى مواكب موت مجانى لا يعلمون متى يأتى عليهم الدور وبات وضع من يعيش بالعراق يختصر فى كلمات معبرة يتفوه بها الكبير والصغير وهى أن من يعيش بالعراق / لازم سرى على الموت/ وتعنى الجميع يقف فى طابور الموت .

ولأننى أحد هؤلاء أطلت الوقوف فى هذا الطابور وفى كل مرة لا يأتينى الموت أعلم أن الدور لم يصلنى بعد .

وفى يوم الاثنين الدامى ٢٥ يناير ٢٠١٠ تكرر الأمر وكنت قد هربت من ملل الغربة والأخبار المؤلمة والصراعات الفارغة التى نسود بتفاصيلها صفحات الجرائد إلى لحظات صفاء نفسى مع صديقى على اليأس وهو أحد مراسلى قناة «الحرة » قبل أن يغادر العراق ليستقر في أمريكا، ربما نتمكن سويا من القضاء على الألم والهم المشترك الذى تفرضه الأحداث ونرسم من خلال مناقشات مثمرة صورة أكثر إشراقاً لمستقبل غلفته الأحداث والمواقف بلون رمادى باهت وجعلت رؤية الغد أكثر ضبابية .. وكان الموعد على شاطىء نهر دجلة الحزين لتناول «السمك المسجوف » الذى ظل يصارع كل الأيام والآلام ليبقى مفضلا لدى العراقيين أو ضيوفهم وبعد أن انتهينا من تناول الطعام وتجاذب أطراف الحديث وانطلقنا فى طريق العودة إلى مقر قناة الحرة داخل المجمع الذى يضم فندق فلسطين وعشتار شيراتون استأذنت مضيفى أن أمضى إلى مقر مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط الذى لا يبعد كثيراً عن فندق فلسطين رافضا دعوة كريمة لاستكمال الضيافة وقبل أن أصل إلى مكتبى بعد مرور حوالى ١٠ دقائق على مغادرة بوابة فندق فلسطين دوى انفجار عنيف هز مدينة بغداد وما عليها وهشم زجاج النوافذ التى طالها صداه وسارعت بالاتصال بصديقى الذى غادرته للاطمئنان وجاءنى صوته مضطربا يحكى لى ما حدث حيث تمكن انتحارى يقود سيارة محملة بنصف طن من المتفجرات من اختراق كافة نقاط التفتيش والمنطقة المحصنة بالكتل الأسمنتية الضخمة وفجر نفسه عند بوابة الفندق التى غادرناها قبل ١٠ دقائق تقريبا وانهار سقف مكتب الحرة وتهشمت النوافذ فى الفندقين الشهيرين وسقط العشرات بين قتيل وجريح بالإضافة إلى احتراق عشرات السيارات .

لم يمنعنى الخوف من الموت الذى قد يكون مزروعا على جوانب الطريق أو طلقات

الرصاص التى أخذت تدوى فوق رؤوس المارة فى مشهد يتكرر دائما مع كل انفجار أو هجوم انتحارى .. لم تمنعنى حالة الهلع التى أصابت أهل المنطقة من شدة الانفجار وكأنه الأول الذى يضرب منطقتهم .. لم يمنعنى ذلك من العودة إلى حيث كنت لأمارس مهمتى المقدسة التى قد يكون ثمنها الموت فى كثير من الأحيان .

داهمتنى لوحة دموية رغم تكرارها إلا أنها مازالت تثير فى نفسى الكثير من القرف والحزن والرعب والبكاء رؤوس متطايرة .. أذرع .. أقدام .. جثث .. مصابون .. ناس يبكون ويصرخون على من قتل أو أصيب أو سيارة احترقت أو تضررت وكل هذا مغلف برائحة شواء للحم بشرى .

تذكرت نفس المشهد الذى لا يغيب عن ذاكرتى عندما رأيت التفجيرات المروعة فى ساحات بغداد عند قدومى إلى العراق منتصف العام ٢٠٠٦ وكنت أرى لأول مرة الرؤوس البشرية التى تتطاير ومازال الشعر عالقا بها وتتطاير معها أذرع وسيقان مع صرخات الهلع والحزن التى تجعلنى فى كل مرة أعود باكيا على موت البشر الذين أعرفهم أو لا أعرفهم.

فى كل مرة كان يقول لى صديقى العراقى أن دورنا فى مواكب الموت المجانى لم يأت بعد .

وفى هذه المرة ربما كان الانتحارى يستقل سيارة تسير بجوار السيارة التى كانت تقلنى فى طريق أبو نواس وانفجرت سيارته المفخخة لخطأ فنى وطالنى من لهيبها شيىء يقتلنى أو يصيبنى .. ربما لو تأخرنا قليلا بسبب الزحام لعشر دقائق فقط كنت فى عداد القتلى أو المصابين .. ربما كانت هناك يقظة من رجال نقاط التفتيش أو بقايا ضمير تكشف هذا الانتحارى بمتفجراته التى تجاوزت الـ ٥٠٠ كيلو جراما وعندها كان قد فجر نفسه قبل الوصول إلى هدفه واصبحت أحد الضحايا .

احتمالات كانت ومازالت قائمة .. أتساءل دائما متى وأين تتحول من احتمالات إلى أمر واقع وعندها يكون دورى فى مواكب الموت المجانى قد جاء .

اليوم .. خرجت مرة أخرى من الموت باكيا كما كنت أبكى كل مرة وحيدا فى مساءات أيام بغداد الدامية أبكى على شعب خلقه الله فقط للبكاء .. للنواح..للرعب ..لمجالس العزاء .. أبكى بحثا عن أمن مفقود يبدو أنه لن يأتى أبدا .

٥ - أين أهلى

عدت سريعا إلى مكتبى بعد أن رأيت الصورة القاتمة المشتعلة التى رسمها الهجوم الانتحارى على الأرض وكانت الاتصالات قد تعطلت بعض الوقت حيث أن معظم

مناطق العراق لا تتمتع بخدمة الهاتف الأرضى مثل باقى خلق الله وإنما الاعتماد الأساسى على شبكات الهاتف المحمول وما أدراك ما هو الهاتف المحمول فى بلد مثل العراق فكما اعتاد العراقيون الجوع والحزن والبكاء فإنهم يتقاسمون تلك العادات مع ما يثيره استخدام الهاتف فى النفس من ألم وضيق ودعوات بأن يخلص الله البلاد والعباد من كل هم وغم وظلم لا يدرى العراقيون ما ذنبهم الذى ارتكبوه حتى يعاقبون عليه بكل هذا الألم .. انهالت الاتصالات من كل حدب وصوب للاطمئنان على أحوالى بعد هذا الانفجار الذى لا يبعد كثيرا عن مكتبى .. أصدقاء وزملاء شيعة وسنة وأكراد.. بل جاء عدد كبير من الزملاء تباعا إلى مكتبى ليروا ما ألحقته شدة الانفجار من أضرار سواء مادية أو شخصية وبعد أن شاهدوا ما لحق بالمكتب من أضرار اعتيادية فى مثل هذه الحالات مثل تهشم زجاج النوافذ وسقوط بعض الأشياء على الارض وتكسرها اطمأنوا على أننى ما زلت بخير وبصحة جيدة إلا من بعض الذهول الذى اصابنى عندما بدأت أستعيد ما جرى وكيف كانت الصورة التى يمكن أن أكون عليها إذا تواجدت فى مكان الهجوم الانتحارى أو حتى بالمكتب لحظة الانفجار الهائل الذى هز بغداد وما عليها وتبعه سلسلة انفجارات استهدفت مناطق أخرى تضم عدداً من الفنادق التى يتخذها إعلاميون آخرون مقار لهم وهو ما دفعنى إلى أخذ دورى فى الاطمئنان على زملاء فى مناطق طالتها الانفجارات الأخرى فى نفس الوقت تقريبا دون أن يدرى أحد حتى الآن معرفة كيف وصل هؤلاء الانتحاريون الذين حملوا الموت والرعب إلى تلك المناطق الهامة الحساسة المحمية بمئات الرجال من قوى الأمن ومئات الكتل الأسمنتية الضخمة اللهم إلا من خطط ونفذ تلك الهجمات الجبانة ومن عاونهم أو تواطأ معهم لتنفيذها حتى تبث الرعب وتعيد صور الفزع والقلق من الغد بعد أن اختفت تلك المشاعر قليلا لعدة أشهر شابها هدوء نسبى تغلب خلالها العراقيون على مشاعر الخوف وعاشوا حياتهم البسيطة بشكل شبه طبيعى وارتادوا المتنزهات وتبادلوا الزيارات القليلة وعادت ظاهرة اختفت أو كادت إلى الحياة العراقية عندما كانت شوارع بغداد وغيرها من المحافظات تختفى منها الحركة فى الثالثة عصرا ليصبح العراق بكل مناطقه مدنا للأشباح لا تسمح بالحركة إلا لأعضاء التنظيمات المسلحة بكل انتماءاتها وأسمائها .

عادت صورة مدن الأشباح للظهور مرة أخرى خلال الأيام القليلة التى أعقبت تفجيرات الاثنين الدامى خاصة مع تواتر الأنباء عن صراعات سياسية محمومة بسبب ما عرف بإجراءات هيئة المساءلة والعدالة التى منعت مئات المرشحين من

خوض الانتخابات النيابية وكان غالبهم من السنة النافذين أو من الشيعة الذين ينتمون لتكتلات وائتلافات قد تشكل خطرا على الائتلاف العراقى.

وسط هذه المشاهدات المثيرة للقلق والحزن اكتشفت أمراً زادنى حزنا وقلقا وإن كان شبه متوقع وهو أن أحدا من عناصر سفارتنا الغراء لم يكلف نفسه للاتصال بى للاطمئنان ومعرفة ما جرى رغم أن الجميع يعلمون موقع وكالة أنباء الشرق الأوسط وما مدى الأضرار التى قد تكون لحقت بالمكان ومن فيه اللهم إلا شخص طيب يعمل سائقا بالسفارة كان قد زارنى ذات مرة فاجأنى باتصال ودى للاطمئنان وأبلغنى أنه كان جالسا مع سعادة السفير فى غرفته الفارهة بفندق الرشيد المحصن داخل المنطقة الأكثر تحصينا بالعراق / المنطقة الخضراء/ والتى لا يغادرها سعادته إلا للقاء بروتوكولى أو تلبية لدعوة عشاء أو للتنزه فى حدائق الفندق الغناء واحتساء الشاى العراقى مع مساعديه بدون سكر فى جلسات السمر الليلية التى ينعم بها سكان الفندق الحصين .

سألت الرجل الطيب هل علم سعادة السفير بمكان الانفجار فأجابنى خجلا نعم ويبدو أنه كان يحاول إخفاء تقصير -غير مفهوم- من سعادة السفير الذى كان يجب أن يبادر بالاتصال ليس بصفتى الوظيفية أو بصفتى صحفى مصرى مستمر بالعراق فى تلك الظروف القاسية ولكن بصفتى أحد رعايا سعادته المتواجدين على أرض النار .

اتصل بى القنصل المصرى هشام صبرى حجازى الذى تربطنى به علاقة صداقة وطيدة خارج نطاق العمل الرسمى وكنت أعتبره نموذجا للمصرى الذى يعمل بلا كلل أو ملل خدمة لوطنه وأبناء وطنه حيث كان الدينامو الحقيقى للبعثة المصرية التى لا يمكن لأى مواطن عادى مقيم بالعراق الوصول إلى أبوابها إلا بصعوبة وبالتأكيد يمكنه الوصول إلى مبنى القنصلية بشارع الأميرات الذى يمارس فيه القنصل أعماله بعيدا عن حصون المنطقة الخضراء كما يفعل سعادة السفير وفريقه الذين سيأتى ذكرهم بشكل موسع فى جزء من الكتاب باعتبارهم من الواقفين على حافة المذبحة دون أن يشهروا أية أسلحة إنما يستمتعون بوقتهم الطويل فى الفندق الفخم ويتابعون ما يدور خارج أسوار المنطقة الخضراء من خلال شاشات التلفاز والكومبيوتر .. تماما كما يقضون ساعات طويلة ويتواصلون مع ذويهم من خلال الشات .

فى المساء اتصل بى شخص مصرى شديد الرقى والإخلاص لمصريته وعروبته هو خالد سعودى مساعد رئيس بعثة الجامعة العربية فى بغداد ومسئول الشئون المالية والإدارية ليطمئن على ما جرى وينقل لى تحيات القائم بأعمال البعثة ناجى

أحمد شلغم .

بعد هذا الانفجار الذى أثار فى نفسى الكثير من التوتر بعد أن أعقبته تفجيرات أخرى طالت مناطق حساسة وفنادق تحظى بحماية أمنية مشددة وإجراءات بالغة التعقيد بدأت توجهاتى التى كان يحدوها الأمل فى استقرار أمنى نسبى وتطور فى العملية السياسية تتغير ويتراجع مؤشر الثقة بالأوضاع إلى درجات متدنية مثلما حدث لغالبية العراقيين الذين شعروا بالصدمة من تزايد حدة الصراع السياسى على خلفية قرارات اعتبرها الناس بداية جديدة للفرز الطائفى وعودة نغمة الصراع على أساس مذهبى وان كان الأمر قد أخذ شكلا مختلفا بتوجيه أسنة الرماح إلى من يطلق عليهم البعثيون والصداميون وهى جزء من نغمة بغيضة كانت تتردد من جانب المسئولين العراقيين كلما سقط ضحايا أو ضرب تفجير مروع منطقة أو أخرى وهى « تحميل المسئولية لتنظيم القاعدة ومن تحالف معه من أزلام النظام السابق والتكفيريين والبعثيين والصداميين المجرمين » وهى أوصاف تعنى بشكل أو آخر المعارضين من أبناء السنة .. فيما وصل الشحن الطائفى ذروته البغيضة فى عدة مناسبات كان أشدها على الإطلاق زيارة أربعينية الإمام الحسين والزيارة التى سبقتها بمناسبة استشهاد الإمام الحسين فى واقعة الطف يوم عاشوراء حين سارت مواكب التطبير التى يطلق عليها « المواكب الحسينية » لأول مرة فى قلب بغداد معلنة عن استعراض للقوة الشيعية حيث يقوم مسيروها الذين يرتدون الزى الأسود بضرب أجسادهم وشج رؤوسهم حتى يسيل الدم منها فى مشهد مروع كان يقتصر على مناطق بعينها وليس فى شوارع قلب العاصمة بغداد .. تظاهرات تم تنظيمها بعناية للاعتراض على قرارات بخوض مرشحين تم استبعادهم من خوض الانتخابات بتهم تتعلق بانتمائهم لحزب البعث الصدامى المحظور رغم تأكيدات من مشاركين فى السلطة والبرلمان على أن عدداً كبيراً من هذه الأسماء ليس له علاقة بالبعث أو أنه شارك بقوة فى عمليات المعارضة ضد نظام صدام حسين أمثال الدكتور صالح المطلك والسيد راسم العوادى بالإضافة إلى أحد أهم الوزراء فى حكومة نورى المالكى وهو وزير الدفاع عبد القادر محمد جاسم العبيدى المحسوب أصلا على السنة إلا أنه رفض الانسحاب من الحكومة إبان الأزمة التى انسحب على أثرها ١٧ وزيرا يمثلون التيار الصدرى والقائمة العراقية التى يرأسها الدكتور إياد علاوى وجبهة التوافق أكبر تكتل سنى مشارك فى العملية السياسية عندما قاطع السنة العملية السياسية ورفض معظمهم المشاركة فى انتخابات مجالس المحافظات والانتخابات النيابية التى تشكل على أساها أول برلمان بعد الاحتلال عام ٢٠٠٥ .

وترافقت عمليات الشحن الطائفى على الأرض مع شحن من نوع آخر على الصعيد الشعبى والإعلامي حيث شاهدت سابقة لم يعتدها الإعلام خاصة الحكومى حين عرضت قناة العراقية الرسمية صور مجموعة من فدائيى صدام ملثمين وهى تقطع رؤوس عدد من الأشخاص عام ١٩٩٨ فى قضية يحاكم فيها مجموعة من رموز النظام السابق فى إحدى الساحات لمراكز فدائيى صدام وهم يرقصون بالرؤوس فرحا.

ونقلت القناة المشاهد بكافة تفاصيلها ضمن عرض محاكمات المسئولين السابقين فى قضية تصفية الأحزاب الدينية وذلك فى يوم ٢٨ يناير ٢٠١٠ وهو دليل إدانة لا يقبل الشك لنظام صدام ومن يمجده حاليا ومن يتحالف معه وفقا لاتهامات الحكومة من عناصر القاعدة وهى عملية تحمل الكثير من المخاطر على الصعيد الشعبى خاصة وأنها ترافقت مع شحن طائفى منظم .

٦ - تباشير العودة

كنت قد تلقيت دعوة للقاء القائم بأعمال بعثة جامعة الدول العربية السيد ناجى أحمد شلغم فى محاولة لرتق الدور العربى بالعراق ومحاولات الرجل المستمرة للعمل الجاد على كافة المستويات وكان يرافقنى الزميل نزار السامرائى وهو مدير تحرير وكالة الصحافة المستقلة « أيبا » والزميل إبراهيم السراجى رئيس جمعية الدفاع عن حقوق الصحفيين إلا أننا فوجئنا بقطع كافة الطرق المؤدية إلى الجانب الغربى من بغداد /الكرخ/ بالإضافة إلى جسرى الجمهورية والسنك وهو ما جعل السراجى يتراجع عن إكمال المسيرة معنا بعد أن تعطلت سيارته وقررنا أنا ونزار السامرائى الوصول سيرا على الأقدام للوصول إلى مقر بعثة الجامعة العربية فى الكرخ وهالنا ما رأينا من آليات عسكرية تتحرك وانتشار أمنى كثيف وعمليات تفتيش دقيقة للعابرين لجسر السنك المؤدى إلى بداية الطريق إلى منطقة العلاوى التى يقع قربها المقر خلف وزارة الخارجية العراقية وتواكب هذا مع تحليق كثيف لمروحيات على بعد منخفض وهو ما يوحى بأن الأمر خطير .. حاولنا دون جدوى الاستفسار من الجنود أو الضباط الذين يتولون تفتيشنا مع إغلاق الطرق عن سبب ما يجرى ولكن دون جدوى والجواب واحد « نحن فى واجب» أى أننا فى مهمة لا نعلم تفاصيلها واستمرت حيرتنا حتى وصلنا إلى نهاية جسر السنك ليفاجئنا مشهد مئات المتظاهرين والمتظاهرات الذين تم حشدهم للتنديد بأى محاولة لاشتراك « البعثيين والصداميين» فى الانتخابات النيابية التى لم يتبق على موعدها إلا شهر واحد دون التوصل إلى صيغة لحل الأزمة التى أثارتها هيئة المساءلة والعدالة التى أصبحت بديلا لهيئة اجتثاث

البعث والخاصة باستبعاد أكثر من ٥٠٠ مرشح وعدم السماح لهم بخوض الانتخابات القادمة .

داهمنا المشهد الحماسى واللافتات الكبيرة المنددة بالبعث ونظام صدام حسين والقتلة من أزلام النظام السابق مع نسوة يتشحن بالسواد حاملات لصور شهداء العهد البائد إلا أن المثير فى الأمر هو هذا الإغلاق التام لكل الطرق والجسور والمنافذ فى خطوة أدت إلى شلل تام فى العاصمة التى كانت قد خلت من أهلها تقريبا خلال زيارة أربعينية الإمام الحسين حيث تعطلت كافة المصالح وأغلقت المحال أبوابها بسبب الزيارة المقدسة لدى الشيعة والتى يبدو أنها كانت مناسبة جدية ورائعة للدعاية الانتخابية وإعادة إنتاج الشحن الطائفى لجماهير ظهر رفضها للأحزاب الدينية التى أدت أربعة أعوام من حكمها إلى خراب البلد وانهيار كافة مرافقه بدءا من الماء والكهرباء مروراً بالطرق والأمن الهش ناهيك عن البطالة والفساد اللذين يهددان أى نظام ولو بلغ ذروة الاستقرار ..تساءلت ومرافقى هل تستحق تظاهرة محدودة تم تسييرها لجماهير لا يملكون قوت يومهم ولا يتمتعون بأى خدمات على مدى حوالى سبع سنوات أن تغلق كل تلك الطرق والجسور وتتعطل كافة مصالح الناس إلا أن التفسير بات واضحا فلم يعد هناك مجال لتضييع الوقت دون استغلال كل فرصة ومناسبة لزيادة الشحن الطائفى والضرب تحت الحزام لقوى يمكن أن تمثل تهديداً ولو غير مؤكد لمنعها من التقدم واللعب على ردود أفعال ربما تكون غاضبة وتمنع قوى وكيانات بأكملها من مواصلة الماراثون الانتخابى وهو بالتأكيد لصالح من يمسك بزمام الأمور ويخشى فقد المزيد من مساحات النفوذ بعد النتائج التى أفرزتها انتخابات مجالس المحافظات التى جرت فى يناير ٢٠٠٩ .

وفى نفس الوقت تواترت الأنباء حول وجود نية لإعلان البصرة إقليماً مستقلاً بناء على مطالب الجماهير إذا ما تم السماح للبعثيين بالعودة إلى الميدان السياسى وهو ما يعنى كارثة محققة خاصة وقف تصدير النفط من المنفذ الجنوبى الوحيد للعراق على الخليج العربى وهى نافذة جديدة لخراب البلاد واحتراق العباد .

ولعل ما زاد مخاوفى أن عملية الشحن الطائفى والتوجه نحو التخندق والمزيد من الانغلاق ربما لن يتوقف أثره على نتائج الانتخابات فقط أو ما يسبقها من عملية انتخابية شهدت عزوفا كبيراً من الجماهير على المشاركة فى التصويت خلالها وإنما المخاوف والقلق الأكبر الذى انتابنى هو امتداد هذا الشحن إلى ما بعد الانتخابات أى على علاقات الناس بعضهم البعض بعد أن أفلتوا من حرب أهلية شاملة جرت مقدماتها المروعة ومشاهدها البشعة خلال عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧

وأوائل ٢٠٠٨ .. كما أن ما يجرى من أجواء سياسية وأمنية مشحونة بالتوتر يمكن أن يكون له نتائج كارثية على الأوضاع الأمنية خلال الحملات الانتخابية وما يتلوها من عمليات التصويت ناهيك عما يمكن أن يحدثه هذا الجو المشحون إذا ما ظهرت النتائج وكانت على غير هوى بعض القوى النافذة وما لها من سطوة ومناصرين وميليشيات ومجالس إسناد وصحوات وغير ذلك من المسميات التى تصب فى اتجاه واحد وهو العمليات المسلحة والقتل والعشوائى وعمليات الاختطاف والاغتيالات و التفجيرات وغير ذلك من مسميات تصبح أمرا واقعا عند انفلات الأمور وتطال الجميع بلا استثناء أو تمييز .

جعلتنى تلك الأمور أرسم صورة شديدة السواد لمستقبل الوضع بالعراق وأدعو الله صباح مساء أن تكون ظنونى فى غير محلها وأن يكون تحليلى للأمور خاطئا .. إلا أن الأمر المؤكد هو أننى اتخذت قرارا نهائيا بإنهاء مهمتى بالعراق فى أقرب وقت ربما أستطيع أن أرى الصورة أكثر وضوحا عندما أكون خارج المشهد الذى يستعيد بعضا من دمويته التى طالنى بعض منها منذ بدء المهمة منتصف العام ٢٠٠٦ إلا أن هذا الأمر ليس قرارا منفردا يمكن أن أتخذه وأقوم بتنفيذه فالأمر كان يتطلب بعض الترتيبات التى عملت على أن تتم وساعدنى فيها كثيراً رئيس الوكالة الأستاذ عبد الله حسن الذى وافق على إنهاء مهمتى مؤكداً أنها خسارة كبيرة لكنه مشفق علىَّ بشكل يحول دون الرفض بسبب ما عانيته خلال أربعة سنوات هي مهمتي بالعراق .

٧ - تجاذبات الشركاء

جرى ما يعرف بالتصويت الخاص فى الانتخابات النيابية وهو يشمل المنتسبين للقوى الأمنية والراقدين فى المستشفيات والمعتقلين ممن لا تزيد محكوميتهم على خمس سنوات وسط تبادل للاتهامات بين الجميع بارتكاب مخالفات وعمليات تزوير وكان هذا التصويت يسبق الانتخابات بأربعة أيام وبعد أن انتهى التصويت لبيت دعوة مع عدد من الإعلاميين على غداء مع رئيس الوزراء نورى المالكى أعقبه مؤتمر صحفى موسع شن فيه الرجل هجوماً حاداً على من وصفهم بالمنفذين لأجندات خارجية والذين يلجأون إلى دول خارج الحدود للاستقواء بهم على الداخل فى إشارة إلى جولات يقوم بها رئيس القائمة العراقية المدعوم عربيا وأمريكيا إياد علاوى شملت كلا من مصر والسعودية وهو ما دفع بالصراع بين القوى الإقليمية إلى الواجهة وباتت الاتهامات واضحة وصريحة فهناك من يتهم القوى الشيعية باللجوء

إلى إيران بينما يلقى اتهاما من قوى أخرى بالتوجه نحو السعودية وغيرها من الدول العربية .. إلا أن الهجوم الحاد الذى شنه المالكى على علاوى وملامح وجهه كانت تشير إلى حجم الأزمة بين الرجلين ومدى اقتراب كل منهما من حافة الفوز وهو ما يغذى صراعا خفيا ظهر عبر تصريحات ترجمت إلى مواقف بعد الإعلان عن النتائج النهائية التى أظهرت تقدم علاوى بفارق مقعدين عن المالكى وتمسكه بتشكيل الحكومة الجديدة مع تشكيك المالكى بالنتائج بل والطعن فى نتائجها .

ومع استمرار حالة الجدل والتجاذبات بين الرجلين ودخول الائتلاف الوطنى والتحالف الكردستانى على خط الازمة /بعد أن أصبح الجانبان بمثابة « رمانة الميزان» أو بيضة القبان كما يسميها العراقيون رغم حصولهم على المركزين الثالث والرابع ب٧٠ مقعدا للائتلاف بينها ٤٠ مقعد للتيار الصدرى و٤٣ للتحالف الكردستانى الذى حاول جمع شتات معارضيه ليكتمل عدد مقاعد الأكراد ويصل إلى ٦٠ مقعدا/ ارتفعت حدة التوتر وعلت نبرة التحذيرات من انفلات الأوضاع الأمنية وبلغت حدة التصريحات أعلى مدياتها وسط مخاوف ملأت الشارع العراقى من عمليات تصفية جسدية وتفجيرات وأعمال عنف تعيد الأمور بالبلد إلى المربع الأول .

وتواصلت المشاورات داخليا مع زيارات الوفود خارجيا وبدأت نبرة جديدة تغلف الخطاب السياسى للائتلاف الشيعى والتحالف الكردستانى أنه لا يمكن تشكيل حكومة بدون إشراك كافة الأطراف وأن مفهوم الكتلة الأكبر التى يسند لها تشكيل الحكومة يعود إلى تفسير المحكمة الاتحادية للمادة ٧٦ من الدستور والذى أكدته المحكمة عبر بيان واضح بأن الكتلة التى يسند لها تشكيل الحكومة هى ليست الكتلة الفائزة بأعلى عدد من المقاعد / كتلة علاوى/ وإنما الكتلة التى يتم تكوينها داخل البرلمان من عدة كتل مؤتلفة وهو ما أثار لغطا شديداً خاصة مع تمسك كل من المالكى وعلاوى بمنصب رئيس الحكومة ناهيك عن التيار الصدرى الذى يرى أنه وبصفته صاحب أكبر عدد من المقاعد داخل الائتلاف الشيعى فإنه الأحق برئاسة الحكومة باعتبار أن الائتلاف يجب أن يشكل الحكومة كحل وسط للخروج من مأزق تمسك المالكى وعلاوى بالمنصب .

ولم تتوقف التجاذبات عند حد المنافسين ولكنها تجاوزت ذلك إلى الحلفاء المفترضين رغم وجود فراق ظاهرى وأقصد ائتلاف دولة القانون الذى يتزعمه نورى المالكى الساعى إلى تجديد ولايته كرئيس لوزراء العراق والتيار الصدرى حليف الأمس المنتمى إلى البيت الشيعى الذى بات يقف حجر عثرة أمام طموحات المالكى وائتلافه فى حكم البلاد لأربع سنوات أخرى رغم الإعلان عن تحالف استراتيجى بين

دولة القانون الإئتلاف الوطنى الذى يضم إلى جانب التيار الصدرى المجلس الأعلى الإسلامى وتيار الإصلاح برئاسة الدكتور إبراهيم الجعفرى وحزب المؤتمر الوطنى برئاسة أحمد الجلبى وهو التحالف الذى عزز المخاوف من إعادة انتاج الفرز الطائفى باعتباره ائتلافا شيعيا ضد ائتلاف العراقية الذى يحظى بدعم العرب السنة .

بلغ حد التجاذبات بين الشركاء إلى حد أن تقوم (شبكة عراق القانون) المؤيدة لائتلاف دولة القانون بنشر رسالة بعثها زعيم التيار الصدرى مقتدى الصدر إلى الرئيس الراحل صدام حسين بتاريخ ١٩٩٩/٣/٢ وهى تؤكد ما ذهبنا إليه فى موضع سابق فى الكتاب من رعاية نظام البعث للشاب مقتدى وعائلته بعد اغتيال والده « الصدر الثانى» عبر الجريدة الرسمية فى ذلك الوقت (القادسية) وهو يقدم الشكر والثناء لصدام ، إلى جانب ملحق جاء فيه.

«ليس من باب التشهير بمقتدى الصدر ، لكن لوضع النقاط على الحروف امام الجميع، وليعلم القاصي والداني (تأريخ) رجال السياسة والمتصدين في عراق اليوم. السيد مقتدى الصدر والذي تقبّل بكل رحابة صدر هجوم قوات الجيش العراقي وبأمر مباشر من رئيس الوزراء السابق أياد علاوي في أحداث النجف المعروفة ، لكنه لم يغفر للمالكي حربه على المليشيات الخارجة عن القانون في البصرة في صولة الفرسان. في حين أن المعركة الأولى كانت قد حدثت بمواجهة مباشرة بين قوات يقودها مقتدى الصدر من جهة، وبين قوات يقودها أياد علاوي من جهة ثانية ، أما معركة صولة الفرسان فكانت ضد عصابات وخارجين عن القانون أذاقوا البصريين سوء العذاب . وأشاعوا القتل والترهيب بين الأهالي ، وما إصرار أهالي البصرة على انتخاب قائمة دولة القانون في الانتخابات المحلية والبرلمانية إلا دليل واضح على تقديم الشكر والثناء لرئيس الوزراء المالكي لتخليصهم من براثين عصابات القتل والتسليب.

لكن السيد مقتدى الصدر يصر على أن صولة الفرسان كانت موجهة ضد قواته (جيش المهدي) وهو اعتراف وإصرار منه على أن الخارجين عن القانون في البصرة هم فعلا اتباعه واعوانه. وهذا الامر يدفعنا بقوة إلى طرح قضية غاية في الأهمية ، تتعلق بالكيفية التي تسلّق بها مقتدى الصدر إلى هرم القيادة للتيار الذي كان يقوده السيد محمد محمد صادق الصدر ، وعن كيفية استطاعة شاب لم يكن ناجحا حتى في دراسته الحوزوية ، وكان يقضي جلّ وقته في لعب البليارد في النجف كيف استطاع أن يقفز فوق الجميع ليقود أضخم وأكبر تيار شيعي ، هذا التيار الذي دفع السيد الشهيد / فى إشارة إلى والد مقتدى/ دمه في سبيله ، لكننا نراه اليوم قد وقع في قبضة مجموعة من الصبية ممن لا يفقهون شيئا. ولنطرح التساؤل بطريقة

أخرى ، فلو كان فعلا مقتدى الصدر هو ثقة السيد الشهيد ، فلماذا لم نسمع له دورا يذكر في حياة والده ، بل لماذا كان هناك إصرار من السيد الشهيد على أن يكون ممثله الوحيد هو السيد جعفر محمد باقر الصدر وليس السيد مقتدى؟ بالتأكيد أن لسيدنا الشهيد أسبابه الخاصة التي دعته أن يلغي أي دور يذكر لمقتدى ، لمعرفته المسبقة بفشل وعدم قدرة الأخير لأي مسؤولية تلقى على عاتقه».

٨ - الفائز الأكبر

يستنتج تقرير لمركز بحوث إسرائيلي أن كل ما حصل في العراق – بما في ذلك نتائج الانتخابات الأخيرة- يعدّ «نصراً صامتاً» لإيران، مشيراً إلى أن استفادتها من الفراغ السياسي الحالي، أخطر من استغلال الجهاديين السُنّة له. ويتوقع التقرير أن إياد علاوي قد ينتهي إلى القبول بـ«دور ثانوي» وبمنصب أقل من رئاسة الوزراء

. ويقول جوناثان سبير، الباحث البارز في مركز بحوث «هيرتزليا» للشؤون الدولية، أن الغرب مجّد كثيراً الانتخابات العراقية، كمؤشر على ظهور البلد كدولة ديمقراطية، قادرة على تشكيل قدرها الخاص، برغم الفراغ السياسي الحالي الذي يُظهر كم يمكن أن يكون خاطئاً، ذلك التقييم الغربي.

وفي وقت مبكر من هذا الأسبوع – يقول سبير- قتل نحو ١٠٠ شخص وجرح مئات آخرون في سلسلة من التفجيرات في بغداد. والتفجيرات –التي نُسبت إلى القاعدة، أو إلى متطرفين سُنّة آخرين- جاءت على خلفية «المأزق السياسي» الذي تلا النتائج غير النهائية لانتخابات الشهر الماضي.

وكان وزير الخارجية، هوشيار زيباري قد علق على هذه الهجمات، رابطاً إياها مباشرة بـ«الفراغ السياسي الخطر» الذي تركته الانتخابات في العراق. وأخبر زيباري المراسلين أن التفجيرات كانت «هجمة سياسية بعثت رسالة مفادها أن الإرهابيين مازالوا يعملون...بسبب هذا الفراغ السياسي على هامش خلافات تشكيل الحكومة المقبلة، ولقد أرادوا توصيل تلك الرسالة».

ويقول الباحث الإسرائيلي أن إرهابيي القاعدة ليسوا الوحيدين الذين يراقبون التطورات في العراق من كثب. ففي الحقيقة، أن اللاعبين الآخرين، يستفيدون أيضاً من الفراغ السياسي، والذين قد يكونون أكثر خطراً على المنطقة من «الجهاديين السُنّة».

ويتابع قائلاً: يلاحظ المرء أن النتائج الأولية للانتخابات تظهر «نصراً ضئيلاً»

للقائمة المختلطة «السُنّية الشيعية» لرئيس الوزراء الأسبق، أياد علاوي. وبالمقارنة مع صور الانتخابات الإقليمية المألوفة، فإن نتائج الانتخابات العراقية، بداية لمعركة حقيقية، فضلاً عن خاتمتها.

وقال الباحث في مركز هرتزليا اليهودي أن علاوي يواجه صعوبة في تكوين تحالفه ضمن محاولته تشكيل الحكومة الجديدة، والتحالف الوطني العراقي «الديني» ذا الصلة بإيران، برز كصاحب نفوذ كبير في هذه العملية السياسية. ويتساءل سبير في تقرير نشرته صحيفة جيروزاليم بوست الناطقة باللغة الإنجليزية، قائلاً: لماذا يواجه علاوي مشاكل كبيرة في سعيه لتشكيل تحالف برلماني؟.

ويجيب عن ذلك بقوله: أن قائمة العراقية التي يقودها رئيس الوزراء الأسبق، ظهرت كرابح لأعلى الأصوات في البرلمان الجديد، ٩١ مقعداً من أصل (٣٢٥ مقعداً) لكنّها بذلك، تبقى بعيدة جداً عن استحقاق الأغلبية التي تحتاجها (١٦٣ مقعداً) لكي تستطيع تشكيل الحكومة المقبلة.

ولهذا فإنّ الحاجة إلى التحالف مسألة واضحة. وإذ يشترط الدستور العراقي، أن الكتلة التي حصلت على العدد الأكبر من المقاعد، تُعطى ٣٠ يوماً لتشكيل الحكومة، فإن علاوي كان يفترض أنّه بالنتيجة التي حصل عليها، يجب أن يُكلف بتشكيل الحكومة. لكنْ على الجانب الآخر –يضيف سبير– قدّم رئيس الوزراء الحالي نوري المالكي –والذي حصلت قائمته دولة القانون على ٨٩ مقعداً– التماساً إلى المحكمة العليا، بخصوص المعنى الدقيق لعبارة «كتلة». ونجح في الحصول على قرار، يبين أن «الكتلة» لا تعني القائمة المفردة، لكنها تعني أيضاً «تحالفاً من القوائم، يُنشأ بعد الانتخابات، ويكون جاهزاً في وقت انعقاد البرلمان».

والبرلمان الجديد يُنتظر أن يعقد جلسته الأولى نهاية الشهر الحالي. ولهذا فإن المالكي في مسعاه للتفاوض مع القوائم الأصغر، ضمن محاولته لضمان دعمها، كي يكون قادراً على الاستمرار في منصبه رئيساً للوزراء، بتشكيله للحكومة الجديدة.

وفي المرتبة الثالثة –يقول الباحث– حصل التحالف الوطني العراقي ذو العلاقات الوطيدة مع إيران على ٧٠ مقعداً، متبوعاً بالتحالف الكردي الذي حصل على ٤٣ مقعداً. وعلاوي –الذي تتضمن قائمته العلمانية التي يهيمن عليها السُنّة،عناصر كانوا سابقاً مرتبطين بحزب البعث الموالي لصدام– سيكون في موقف ضعف في استقطاب كلا الحزبين المذكورين الشيعي والكردي.

والتحالف الوطني له أسبابه في تفضيل الشيعة المعتدلين في قائمة المالكي. وعلاقات علاوي مع الأكراد ضعيفة أيضاً. وهذا يعني أنه –برغم نصره الظاهر–

فإن علاوي قد ينتهي إلى قبول منصب أقل من رئيس الوزراء، وإلى أداء دور ثانوي في أي تحالف يشكل. إن الحدث غير المحتمل -يقول سبيير- هو أن يشكل علاوي تحالفاً، ذلك أن التحالف الصاعد إلى السلطة، لابد أن يضم الائتلاف الوطني العراقي، وبالدرجة الأساس يكون فيه تحالف المالكي، وكلا التحالفين يسود فيهما الشيعة بشكل مطلق، إذن سيكون صعباً على تحالف علاوي أن يكون وسط هذا الحضور، وضمن «منصب» يُختار له بـ«عناية»!.

ومن جانب آخر فإن قوات الميليشيات التي تدعمها إيران، أظهر كيانها السياسي حضوراً واضحاً في الانتخابات، مقابل أن القوات الأمريكية سيتلاشى دورها العسكري العملياتي، بعد انسحاب يُستكمل في آب المقبل.

أما تباهي الأمريكان -يؤكد الباحث السياسي الإسرائيلي- بإنجاز نصرهم ضد القاعدة والمجموعات المتطرفة الأخرى، بقوات «السورج» وبعدد كبير من المتمردين السُنّة السابقين، فإنه سيتبخر لأن الأمور نهاية هذه السنة والسنة التي تليها ستجعل العراق عرضة أكثر من ذي قبل وبشكل خطير لـ«النفوذ الإيراني».

وقال أن الإيرانيين يستقتلون من أجل بقاء وتطوير هذا النفوذ، لأنهم يحتاجونه في مخطط هيمنتهم على المنطقة. وحسب صحفي عراقي في لبنان «حسين عبد الحسين» فإن النتيجة الحقيقية للانتخابات العراقية، أنها «نصر صامت» لإيران وليس للولايات المتحدة.

وأضاف: «لقد أدارت إيران ثانية عملية هزيمة الولايات المتحدة وشركائها الإقليميين العرب».

لكن الباحث الإسرائيلي يقول: أن هذا لا يعني طبعاً أن الإيرانيين لا يمكن أن يُوقفوا، ولا يعني أن النظام الوحشي واللاديمقراطي في إيران -بحسب تعبير الباحث- لا يمكن أن يُجابه.

ولكن لكي تكون عملية مواجهته فاعلة، يجب أن تعرف أسباب الصمت الطويل على الأدوار التي يلعبها النظام الإيراني في الشرق الأوسط. وطالب جوناثان سبيير الغرب بجعل مواجهة إيران ضمن أولوياتها[1].

(١) أثبتت النتائج على الأرض صحة هذه التوقعات بعد أن تحالف مقتدى الصدر مع نوري المالكي وانضم الأكراد للتحالف واضعين القائمة العراقية في موقف ضعيف أجبرت علاوي وقائمته على التنازل عن أحقية تشكيل الحكومة فيما بعد.

٩ - القنصلية

وسط هذا الجدل المحتدم ضربت العاصمة بغداد سلسلة تفجيرات مروعة استهدفت بعثات دبلوماسية مما أدى إلى سقوط أكثر من ٢٠٠ قتيل وجريح وكان من بين المناطق المستهدفة مقر القنصلية المصرية بشارع الأميرات بحى المنصور الراقى وحاولت الاتصال بأى شخص من أعضاء البعثة المصرية / السفارة/ دون جدوى حتى تمكنت من الاتصال بالسكرتير الثانى / أحمد الأنصارى/ وطلبت منه أن يبلغ السفير بضرورة خروج تصريح رسمى حتى نوقف سيل التصريحات التى تبثها الفضائيات دون وجود معلومة رسمية مصرية خاصة مع استمرار الاتصالات من زملائى من الإعلاميين يستفسرون منى حول ملابسات الأمر لأنهم بالطبع لا يستطيعون الاتصال بسعادة السفير أو أى من عناصر البعثة المتواجدين فى فندق الرشيد داخل المنطقة الخضراء المحصنة ولا يقيمون أى علاقات ممتدة مع أى من وسائل الإعلام العراقية في ذلك الحين .

جاءنى صوت الدبلوماسى الشاب مضطربا رغم أن التفجيرات تبعد عنه عدة كيلومترات كما أن أيا منها لا يستطيع الوصول إلى مقر السفارة التى تتخذ من بعض غرف فندق الرشيد داخل المنطقة الخضراء مقرا لها وهو المكان المحصن الذى يقع داخل حصون تحيطه من كل جانب ..قال الدبلوماسى الشاب بصوت مرتعش « إحنا فاضيين للبيانات الصحفية ؟ ! لما نشوف الأول الكارثة اللى إحنا فيها » متجاهلا بذلك دور الإعلام فى توضيح حقيقة المشهد ومنع أى التباس فى المعلومات خاصة إذا جاء عبر مراسل وكالة الأنباء الرسمية المصرية .. رثيت لحالى أنا الصحفى المحمل بجذوة معرفة الحقيقة .. الذى أعيش فى وسط بغداد ضمن مناطق نفوذ لكافة فرق الموت والميليشيات بلا حماية أو حصون تمنع عنى أى هجوم من خلال قناص أو مجموعة مسلحة قد أكون هدفا له أو أى انفجار قد يطيح برأسى أو مكتبى أو كلاهما معا عكس ما ينعم به الدبلوماسى الشاب الذى يقيم داخل حصون المنطقة الخضراء ويقوم على خدمته فريق كامل من الموظفين والإداريين فلا يضطر لمجرد الظهور خارج القلاع التى يقيم ويعمل فيها ولا يحمل هما للكهرباء أو الماء أو غيرها من الخدمات الأساسية التى بات الحصول عليها بانتظام فى بغداد من أمور الرفاهية التى يتمتع بها الدبلوماسى الشاب مع باقى سكان المنطقة الخضراء ..أما أنا فلا خدمات إلا بشق الأنفس ولا حماية ولا فريق عمل يشاركنى قلقى ووحشتى فى أيام بغداد الدامية التى تقتل الإنسان المعني

بنتل الحقائق .. ثم تمحق الحقائق بعد أن تبيد من يتكفل بنقلها ورغم كل ذلك أمارس كافة أنواع العمل الإعلامى كمراسل لوكالة أنباء الشرق الأوسط ومراسل للإذاعة المصرية وإذاعة صوت العراب وجريدة الشروق اليومية المصرية عبر شبكة من العلاقات تمكنت من بنائها على مدى سنوات المذبحة رغم كل الظروف القاسية التى أعمل فى ظلها والتى عرضتها فى مواضع سابقة من الكتاب .

استمرت حالة اللغط فى التقارير الإعلامية حتى أصدرت وزارة الخارجية المصرية بيانا رسميا بثته الوكالة والقنوات المصرية إلا أنه كان لا يحمل معلومات دقيقة عن الهجوم أو ربما أرادت الخارجية المصرية التهوين من هول الهجوم الذى وقع عند باب القنصلية .. حيث اكتفى البيان بالإشارة إلى إصابة أربعة من الموظفين المصريين فى القنصلية ومقتل قائد الحراسة إلا أن الحقيقة كانت مغايرة لذلك تماما وكيف لا وأعضاء البعثة يتحصنون خلف جدران المنطقة الخضراء ويعتمدون فى معلوماتهم على الاتصالات الهاتفية .

أبلغنى فى تلك الأثناء زميلى شعلان الجبورى مدير القسم العربى بوكالة الأنباء الصينية / شينخوا/ والذى يقع مقره فى حى المنصور حيث وقع التفجير الذى استهدف القنصلية المصرية أن هجوما انتحاريا استهدف المقر وأن خسائر مادية وبشريه كبيرة لحقت بالمكان .. وتمكنت من الاتصال بأحد الموظفين ويدعى عبد العظيم وطلبت منه أن يدخل الهاتف إلى القنصل هشام حجازى لكى أطمئن عليه .. وجاءنى صوت صديقى هشام مضطربا ليؤكد لى أنه بخير ولكن توجد بعض الأضرار وانتهت المكالمة وأنا فى قلق بالغ على صديقى أولا ومن يعملون معه ثانيا وخاصة بعد أن تأكد مقتل قائد الحرس الخاص بالمقر الرائد طارق نصر الله وكنت قد التقيت به عدة مرات ولا أنسى ابتسامته وطيبته العراقية وهو ما جعلنى أهرع إلى مقر القنصلية متناسيا كل المخاطر المحدقة بالطريق واصطحبت معى أحمد فاضل مراسل قناة النيل للأخبار .

داهمنا مشهد مروع رغم أن أنظارنا اعتادت عليه إلا أنه يداهمنا كل مرة.. دمار شديد .. حفرة فى الأرض تنضح منها المياه .. آثار حرائق وتهشم مبانى وقطع زجاج متناثرة .. سيارات اختفت معالمها وأخرى احتفظت ببعض أجزائها المعدنية .. بقايا أجسام بشرية تفوح منها رائحة الشواء .. حالة من الهلع والذهول والاستنكار تغلفها فرحة مكبوتة بالنجاة من موت محقق .. حزن لفقدان صديق أو قريب .. دعوات بأن ينتقم الله من الظالمين .

إلا أن ما داهمنا هذه المرة أنا وزميلى مراسل النيل /وهو عراقى خاض معترك الموت

عبر مهنة الصحافة وعاصر المئات من التفجيرات / حوار دار بين أحد أقارب ضحايا الهجوم الانتحارى وأحد مسئولى الأمن العراقيين اللذين كانوا يتابعون الحادث سأل العراقى المكلوم عن أخ له كان متواجدا لحظة وقوع الهجوم فأجابه المسؤول / لا يوجد غير فخذ محترق ملقى بجوار مولد الكهرباء / تنهد الرجل فى لهفة تغلبها الدموع / أشوفه الله يخليك .. بكى « يا ريت» يكون فخذ أخى/ .. وعندما شاهدت صديقى القنصل وقد غطى التراب وجهه وملابسه وبدت عليه علامات الإحباط والقلق وارتسم وجهه المشرق المبتسم دائما بقسمات - لم أراها منذ التقيته حين تولى مسئوليته بالعراق - تنطق بالكثير من الهموم التى يغلفها الذهول لما حدث .

احتضنته كأخ لى وترقرقت عيناى بدموع حارقة .. وهمس فى اذنى طالبا عدم نشر أى شيء غير ما يردنى من الجهات الرسمية العراقية وعاتبنى على تعريض نفسى للخطر ومشقة الطريق إلا أنه الواجب الذى لا يمكن أن يمنعنى عن الاطمئنان عليه وعلى أعضاء القنصلية الذين يعملون وسط كل هذه المخاطر والظروف القاسية وبإمكانيات محدودة على حل ما يمكنهم من مشكلات للمصريين المتواجدين بالعراق بعيدا عن حصون المنطقة الخضراء .

عدت وزميلى مراسل قناة النيل نجتر الألم وكأننا نرى مشاهد التفجير للمرة الأولى إلا أن بغداد كلها بدت وكأنها تتعرض لتفجير للمرة الأولى حيث خلت الشوارع بشكل مثير للدهشة بعد أن هرع الناس إلى بيوتهم رغم أن الساعة لم تكن تتجاوز الثالثة عصراً وبات الجميع ونحن منهم ينتظر الأسوأ وما سيئول إليه الوضع المضطرب والجميع يتساءل إلى أين تسير خلافات شركاء العملية السياسية .

وكما كنا نتساءل كل مرة يحدث فيها تفجير مروع يستهدف منطقة محصنة تساءلنا تلك المرة .. كيف تصل تلك المفخخات التى يقودها انتحاريون إلى مكان مثل السفارة الإيرانية فى منطقة الصالحية على سبيل المثال ؟ وموقع السفارة الإيرانية فى بغداد لمن لا يعلم موقع استراتيجى تم اختياره بعنايه ورغم وقوعه خارج المنطقة الخضراء إلا أن الوصول اليه تعيقه حواجز بشرية وكتل أسمنتية وجدران محصنة فالقادم بسيارته عبر جسر « السنك الواصل بين الكرخ والرصافة يمر خلال مسيرته للوصول إلى السفارة بعدة نقاط تفتيش وأجهزة لكشف المتفجرات وكذلك القادم عبر جسر « الجمهورى، الذى يمر بجوار مدخل وزارة الدفاع أما القادم إلى ذلك المكان من منطقة العلاوى التى تضم وزارة الخارجية وبعض الوزارات والمبانى والمقرات الهامة فانه يمر أيضا خلال عدة نقاط تفتيش شديدة السيطرة تصطف أمامها طوابير السيارات للتفتيش والتدقيق فى الهويات والسؤال نفسه يندرج على كل

المواقع التى تم تفجيرها خاصة سلسلة التفجيرات التى هزت العاصمة وأطلق على أيامها الأربعاء الدامى والأحد الدامى والاثنين الدامى وغير ذلك من الأسماء الدموية .

علمنا فيما بعد أن المنزل المجاور للقنصلية المصرية كان عبارة عن ذاكرة ثقافية انهارت مع تفجيره فقد كان بيت الأديب والفنان الموسوعى جبرا إبراهيم جبرا الذى لم يعرف الانتحاري الذي قاد السيارة المفخخة مستهدفاً مبنى القنصلية المصرية شيئاً عنها ومن هو صاحبها؟ وماذا تحوي من كنوز فنية ونفائس أدبية؟ وأي تراث شخصي وتاريخ ثقافي قد دمّر بفعله الإجرامي - لحظة انفجاره بما يقود ويحمل ليدمر ويحرق كل شيء في الدار التي من بابها دخل: من البشر، إلى الفن، إلى الثقافة، وما هنالك من وثائق مهمة تمثل ذاكرة مرحلة من أهم مراحل الثقافة الحديثة؟

ترك جبرا إبراهيم جبرا من بعد وفاته عام ١٩٩٤في تلك الدار ، أعمال فنية نادرة لكبار فناني العراق، وآلاف الأوراق المخطوط منها والمطبوع، والوثائق التي تمثل ذاكرة مرحلة لعلها من أخصب مراحل الإبداع وأكثرها غنى.

ذهب الهجوم البربرى بما فيها بعد أن تحولت إلى ركام من الحجارة والتراب والرماد ..فالدار تهاوت على ما فيها، ومن فيها، والأعمال الفنية والكتب والورق بصفحاته التي تعد بالآلاف تحولت إلى رماد .. وأعلى هذا الركام لافتة سوداء تنعى «أم علي» شقيقة زوجة ابن جبرا التى كانت لحظة وقوع الحادث تجلس في تلك الغرفة الصغيرة، على يسار الدار من ناحية الجراج، وهي الغرفة المحببة إلى جبرا والتي كان يحب أن يستقبل فيها الخاصة من أصدقائه، فتهاوت عليها، ولم يتمكنوا من انتشال جثمانها من تحت الركام إلا في اليوم التالي!

ذهب ما كان في داخل الدار، وفي الممرات والغرف من أعمال فنية تجمع بين جواد سليم، وشاكر حسن، ومحمد غني، ونوري الراوي، وضياء العزاوي، ورافع الناصري، وراكان دبدوب، وسعاد العطار، وعشرات الأسماء الأخرى من فناني العراق، من جيله ومن الآتين من بعد ذلك الجيل الرائد، فضلاً عن أعماله هو. وكذلك الأوراق التي تضم ما كتب ولم يضمه في كتاب، والمسودات التي تمثل الكتابة الأولى لرواياته وقصصه، بوجه خاص، فضلاً عن مئات الرسائل المهمة أدبياً من عشرات الأدباء والأصدقاء من عرب وأجانب، وصور عن رسائله التي كتبها لهؤلاء الأصدقاء منذ ثمانينات القرن الماضي وحتى يوم رحيله

ذهبت الدار، التي رسم جبرا خريطتها بنفسه وأشرف على تنفيذها، وأرادها أن

تكون «متحفاً» له من بعد وفاته، إلا أن شيئاً من هذا لم يحصل!

ومن بين ما ذهب مع ما ذهب صور فريدة، وتسجيلات صوتية، وأشرطة فيديو لندوات ولقاءات ومحاضرات كان يلقيها أو يشارك فيها، وها هو اليوم كل شيء يتداعى ويحترق: الدار بمن فيها وما فيها، والنار التي عصفت بكل شيء وأتت على كل شيء، مخلفة الرماد، ولا شيء سوى الرماد من دار كانت مركز حيوية ثقافية على مدى نحو نصف قرن من الزمان..

١٠ - تقرير الشروق

بعد مرور يومين على الهجوم المروع على مبنى القنصلية المصرية فى بغداد لم تنقطع خلالهما الاتصالات مع القنصل المصرى هشام حجازى للاطمئنان على سير العمل فى إزاحة آثار الهجوم البربرى ومحاولة إقناعه بعمل تقرير مصور يوضح حقيقة ما جرى والدور البطولى للمصريين والعراقيين على حد سواء وإظهار موقفه الرائع الرافض للانتقال إلى داخل حصون المنطقة الخضراء رغم حجم المخاطر التى ترجمت عمليا فى هجوم بربرى أطاح بفريق الحماية وكاد أن يطيح برؤوس عدد من موظفى البعثة .. اقتنع الصديق برأيى الصحفى وسمح لى بكتابة تقرير كأول صحفى يدخل إلى مبنى القنصلية المدمر وتصوير ما لحق بالمكان وسكانه ونشره فى صحيفة الشروق التى أمدها ببعض المواد الصحفية .. فكان هذا التقرير المدعم بالصور :

«فى شارع الأميرات بحى المنصور الراقى غربى العاصمة العراقية بغداد تقاطعت كل الخطوط .. سياسيا .. أمنيا .. إنسانيا لترسم مشهداً معقداً اجتمعت فيه نذالة القاتل مع شهامة الشهيد .. وارتفعت أصوات التحدى والبقاء لتطغى على نعيق التهديدات التى يترجمها الإرهاب عمليا إلى بارود ودماء .

«الشروق» تمكنت من الدخول إلى مسرح الحدث حيث المشهد الدامى لتكون وسيلة الإعلام الوحيدة التى اخترقت كل التحصينات الأمنية التى فرضتها السلطات العراقية بعد أن أغلقت كل الطرق المؤدية من وإلى القنصلية المصرية بعد تعرضها لهجوم انتحارى بحافلة صغيرة أدى إلى انهيار عدد من المبانى المجاورة للقنصلية ومقتل وإصابة عدد كبير من المدنيين الأبرياء .. فيما نال مبنى مقر القنصلية نصيب وافر من الدمار والحرائق خلفت أربعة قتلى من الفريق العراقى المسئول عن حماية المبنى على رأسهم الرائد طارق قائد الفريق وإصابة أربعة آخرين بجروح خطيرة بالإضافة إلى إصابة أربعة من المصريين العاملين بالقنصلية بجروح ليست خطيرة .

بعد محاولات مضنية لتجاوز الحواجز الأمنية والكونكريتية التى تغلق الطرق المؤدية من وإلى مبنى القنصلية المصرية تمكنت من الوصول سيراً على الأقدام إلى الشارع المؤدى إلى المبنى وبدأت آثار الهجوم تظهر شيئا فشيئا ..بقايا الزجاج الذى يفرش الأرض .. سيارات محترقة تماما أو مهشمة .. بيوت يكسوها السواد وتعلوها شارات الحزن ..أب مكلوم بفقدان ثلاثة من أبنائه يقف بباب بيته ينتظر خبرا عن طفله الذى لم يعثر له على أى أثر بسبب شدة الانفجار..رجال أمن عراقيون يصطفون على جانبى الطريق متحفزين ..حفرة قطرها أربعة أمتار بعمق يزيد على المتر أحدثها الانفجار .. قطع حديد صغيرة متفحمة هى كل ما تبقى من الحافلة التى كان يستقلها الانتحارى قبل أن يفجرها .. بقايا السور الرئيسي للقنصلية الذى أطاح الانفجار ببواته الحديدية العملاقة .. عمال عراقيون يعملون بجهد خارق لإزالة آثار الدمار يعاونهم عدد من العاملين بالقنصلية فى مشهد يشرف عليه القنصل المصرى هشام حجازى الذى نجا بأعجوبة ويسابق الساعات حتى يعيد المشهد إلى ما كان عليه قبل الهجوم بأسرع وقت ممكن ليواصل تقديم الخدمات المعتادة للمصريين والعراقيين الذين يراجعون القنصلية .

استقبلنى القنصل بابتسامة يغلفها الحزن وتنطق بالإصرار على الاستمرار رغم كل ما حدث .. قال لى بنبرة الواثق سوف نستمر فى العمل مهما كانت الظروف ومهما زادت المخاطر لأن العراق لمصر ومصر للعراق وأكبر دليل على ذلك هذه الكوكبة من الشهداء العراقيين المسئولين عن حماية السفارة الذين اندفعوا لأداء واجبهم المقدس فى حماية إخوانهم المصريين واستشهدوا لأنهم لم يخافوا من الموت المحقق ودافعوا بكل قوة حتى لا يتمكن الانتحارى من الوصول إلى نقطة أقرب من تلك التى وصلها بحافلته المليئة بالمتفجرات .. وما حدث هو تعبير عن اليأس .

سألته كيف ؟؟ .. قال لى أن الانتحارى ومن وراءه أيا كانت هويتهم وصلوا إلى مرحلة اليأس وما حدث من هجوم مروع هو نوع من الرد على نشاط الدور المصرى والعربى فى العراق خلال الفترة الماضية .. وكما ترى الإرهاب موجه للجميع لتغييب الدور الحقيقى الداعم للعراق الذى يريد أن يخرج من كبوته وينفتح على محيطه العربى والإقليمى .

اصطحبنى الوزير المفوض هشام حجازى إلى داخل المبنى لأكون شاهد عيان على ما لحق به من دمار لا يمكن أن يثنيه هو أو فريق عمله عن مواصلة جهدهم فى خدمة مصر والعراق .. رأيت حجم الدمار الذى لحق بالمبنى من الداخل

وكيف تحولت مكاتب موظفيه إلى ركام وبقايا خطام وخراب لم تتوانى السلطات العراقية لحظة واحدة عن مد يد العون لإنهائه بعد أن طالت يده كل مكان فى القنصلية وهو ما جعل القنصل المصرى يظهر الكثير من الامتنان للعراقيين وخاصة الشهداء الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الواجب .

أكد لى أن السلطات العراقية بكافة مفاصلها قدمت العون حيث أرسلت وزارة الدفاع خلية طبية وقامت الخارجية فى غضون ساعات بعد الهجوم بالعمل على إعادة التيار الكهربائى والمياه كما زار القنصلية شيروان الوائلى وزير الدولة لشئون الأمن الوطنى والفريق الركن حسين العوادى قائد الشرطة الوطنية واللواء رعد عبد الكاظم قائد حماية السفارات كما عبرت كافة القوى السياسية عن دعمها .. الجميع لا يريد أى غياب للدور الذى تقوم به مصر وهو ما يعجل بعودة ماكينة العمل بالقنصلية للدوران مرة أخرى فى أقرب وقت ممكن .

قال لى القنصل المصرى « أن الدعم العراقى لم يتوقف عند حدود الكلام وإنما تمت ترجمته عمليا بإرسال فريق جديد للحماية وتكثيف الإجراءات الأمنية وتخصيص سيارة مصفحة بعد أن تهشمت كل سيارات القنصلية بما فيها سيارة القنصل وهو ما اعتبره مؤشراً راسخاً على علاقات وطيدة استطاع بناءها خلال فترة عمله بالعراق مدعوما بالثقل المصرى ورغبة العراقيين فى مد الجسور مع الشقيقة الكبرى » .

ثم روى لى عبد العاطى سعيد الذى تسلم عمله بالقنصلية المصرية بالعراق قبل أسبوعين فقط عن بطولة الشهيد الرائد طارق نصر مبارك الذى هرع إلى بوابة القنصلية عندما سمع إطلاق النار من جانب أفراد الحماية الذين حاولوا إيقاف تقدم الانتحارى وكيف واجه الانتحارى بشجاعة فائقة وأطلق نيران مسدسه فى محاولة فاشلة لايقاف تقدمه وهو ما جعل الانتحارى يفجر نفسه ليطيح بالشهداء الثلاثة من عناصر الحماية ويقتل سبعة من جيران القنصلية ويصيب عددا كبيرا بينهم أربعة من عناصر الحماية العراقيين حالتهم خطيرة بالإضافة إلى أربعة من المصريين اللذين تم نقلهم إلى مستشفى اليرموك القريب لتلقى العلاج السريع ثم عادوا إلى مقر القنصلية ليستكملوا علاجهم .

«الشروق» التقت اثنين من المصابين المصريين رووا ما حدث وكيف أطاح الانفجار بهم وأدى إلى إصابات كبيرة لكنها ليست خطيرة .. يقول صبحى سعدى مصطفى الذى تحول مكتبه إلى أطلال « الحمد لله على النجاة من موت محقق .. عندما وقع الانفجار فقدت الوعى ولم أشعر بنفسى إلا فى المستشفى وأنا مصاب بجروح فى

الرأس واليد والقدمين ولكننى فضلت العودة لأشارك زملائى فى إعادة العمل بالقنصلية لوضعه الطبيعى رغم أننى أخضع للعلاج » .. ويتساءل الحاج صبحى كما يطلقون عليه بالقنصلية .. لماذا يحدث كل هذا .. لمصلحة من .. ماذا سوف يكسبون .. وما السبب الذى يجعل الانتحارى يفعل كل هذا .. وما هى النتيجة .. ربنا يهدى».

ويقول «أحمد محمود الغرباوى» الذى كان قد اقترب كثيرا من الموت وشاهد ما جرى منذ اللحظة الأولى حيث كان مسئولا عن استلام جوازات السفر من المراجعين عند البوابة الخارجية للقنصلية « شاهدت الرائد طارق رحمه الله يجرى باتجاه الانتحارى الذى كان يقود حافلة بيضاء صغيرة محاولا إيقافه وهو يطلق النيران ومعه أعضاء الحماية وهو السبب فى عدم اختراق الانتحارى لأبواب القنصلية لأنه اضطر إلى تفجير الحافلة وبعدها فقدت الوعى وعندما عدت اكتشفت حجم الدمار الذى لحق بالقنصلية والبيوت المجاورة لها » .. ويؤكد أحمد وهو شاب لم يتجاوز الثلاثين أنه رغم ما حدث وخضوعه للعلاج فانه يواصل عمله قدر ما يستطيع حتى تعود الأمور إلى طبيعتها وأن هذا الهجوم الجبان زاده إصراراً على مواصلة العمل بالعراق ضمن فريق القنصلية .

أما المصابين الآخرين وهما فوزى عبد السلام وأيمن فهيم فقد حالت ظروف الوقت دون لقائهما حيث كان النهار قد وصل إلى نهايته مما اضطرنى إلى الإسراع لمغادرة المكان والعودة إلى أدراجى بعد أن اطمأننت عليهما وأن حالتهما مستقرة ويمارسان حياتهما بشكل طبيعى ويخضعان لعلاج داخل القنصلية من فريق طبى عراقى .

السفير المصري في العراق شريف كمال شاهين الذى زار القنصلية فى اليوم الثانى للهجوم للوقوف على حقيقة ما جرى ومعاينة الأمور على أرض الواقع أكد « للشروق « خلال اتصال هاتفى أن البعثة الدبلوماسية المصرية لن تغادر العراق،.. فالبعثة كانت تواصل عملها، وسوف تستمر فى أداء عملها دون أن تتأثر بحادث التفجير .

وقال شاهين « هذا هو هدف الإرهابيين الذين أرادوا إرهابنا معنويا حتى لا نقف مع العراق» .. مشيرا إلى أن السفارة المصرية مدينة للعراقيين الذين استشهدوا وهم يدافعون عن مقر القنصلية ، لأن تدخلهم منع الانتحارى من دخول مبنى القنصلية وإلحاق المزيد من الأضرار وربما الضحايا .

وأضاف «هناك تنسيق مع السلطات العراقية للكشف عن هوية مرتكبى الهجوم « إلا أنه رفض الكشف عن أية معلومات حول ما انتهت إليه تحقيقات الجانب العراقى خلال الساعات الماضية».

١١ - بعد العاصفة

فى آخر زيارة لى إلى مقر القنصلية قبل مغادرتى العراق بحوالى شهر هالنى ما رأيت بعد أن تغيرت معالم الطريق المؤدى إلى المبنى الذى بدأ يتعافى بمن فيه .. جدران أسمنتية يصل ارتفاعها إلى أربعة أمتار تحيط بالمبنى وتسد الطريق إليه بالكامل من جانب بيت جبرا إبراهيم جبرا وحدود مدرسة الرسالة بينما يقف حراس متحفزون شاهرين سلاحهم فى وجه القادمين على حدود جدار أسمنتى آخر عند المدخل المؤدى إلى مكتب القنصل .

لم يعد هناك مكان آدمى لاستقبال المراجعين للقنصلية من العراقيين والمصريين الذين يضطرون للوقوف ساعات طويلة ينتظرون إشارة المرور من حراس المقر الذى بات يوحى مشهده بالعاصفة التى تعرض لها جراء الهجوم الانتحارى .. حيث شكا لى مصريون جاءوا لإنهاء مصالحهم بالقنصلية من طول الانتظار فى لهيب الشمس الحارقة بينما شكا عراقيون بينهم طلاب وموظفون وإعلاميون وأساتذة جامعات ومهندسون وأطباء ورجال أعمال وتجار من استحالة الحصول على تأشيرة دخول إلى مصر سواء للعلاج أو الدراسة أو زيارة الأهل الذين حصلوا على إقامة بالمحروسة قبل اشتداد الأزمة .

نقلت الشكوى إلى القنصل هشام حجازى الذى يحاول قدر الإمكان إنهاء ما تيسر من مراجعات وتذليل بعض العقبات فشكا لى بدوره من ضعف الإمكانيات وانخفاض أعداد العاملين بالقنصلية قياسا بما ينجزونه من أعمال .. إلا أن قضية منح التأشيرة تبقى أمرا شديد الغموض ويبدو أنه مازال مستعصيا على الحل رغم توافر التأشيرات إلى مصر بمبالغ كبيرة من خلال شركات السياحة المنتشرة فى كل مناطق العراق بالإضافة إلى ما تمنحه القنصلية من تأشيرات للوفود الرسمية أو بعض الحالات سعيدة الحظ .